اقصوصة فرنسية بقلم الأستاذ ابن عبد الملك

كانت مدينة (اتريتا) ذات الصخر الأشهب والحصى الأبيض والبحر الأزرق تستريح تحت الشمس الصاحية ، فى يوم من أيام يوليو الضاحية . وكان منظرها العام أشبه بالهلال قد انتهى طرفا استدارته ببابين أحدهما صغير وهو الأيمن ، والثانى كبير وهو الأيسر ، ثم تقدما فى الماء الساكن نخوض كلاهما فيه ، وارتفعت قمته حتى بلغت مستوى الصخور . وكان قد جلس على شاطئها المديد جماعة من المصطافين ينظرون إلى المستحمين ، واحتشد على مَشرف الكازينو جماعة أخرى قائمة أو قاعدة تعرض تحت أضواء الشمس المشرقة جنة مزهرة من الزينة تسطع فى خلالها المظلات الحمر والزرق مطرزة بأزهار الحرير الملون . وانعزل فى آخر المشرف على طريق النزهة فريق آخر من المصطافين يريدون السكون وينشدون الراحة ، فوقفوا خطاهم الوئيدة على أنغام الموج بعيداً عن زحمة الأجسام وضجة الأصوات . وكان بين هؤلاء شاب معروف لديه هو الرسام جان سومير . كان يمشى ساهما واجما بجانب عربة صغيرة من عربات المقعدين يدفعها الخادم فى هون ورفق ، وقد جلست فى هذه العربة زوجته وهى فتاة فى ريق العمر تسرح النظر الحزين فى جمال السماء وزينة الأرض وبهجة الناس

كان الزوجان يسيران على هذه الحال لا يتبادلان الكلام ولا النظر ، حتى قالت الزوجة :

— لنقف هنا قليلا . فوقفا ، وتقدم الخادم إلى الرسام بكرسى صغير من القماش فقعد عليه . وكان كل من مر بالزوجين الساكنين الساكتين يلقى عليهما نظرة حنان وحزن ، فقد اضطربت الألسنة بأن حادثاً من حوادث الاخلاص والتضحية وقع بينهما ، إذ تزوج الشاب منها على الرغم من عاهتها المزمنة تأثراً من حبها إياه كما يقال . فقال رجل لآخر وكانا جالسين على مقعدين يجيلان نظريهما فى الفضاء :

— كلا ، ليس هذا صحيحاً . أنا أعرف جان سومير حد المعرفة

— إذن لماذا تزوجها ؟ فقد كانت حين الزواج على هذه الهاهة ! أليس كذلك ؟

— نعم هو كذلك ؛ ولكنه تزوجها . تزوجها كما يتزوج الناس حقاً وسفاهة

— وبعد ؟

— وبعد ؟ ليس هناك بعد ولا قبل يا صديقى . الانسان أحمق لأنه أحمق . وأنت تعلم من خصائص الرسامين الزواج المضحك ، فهم يتزوجون على التقريب كل الأمثلة (modéles) ؛ وقد يتزوجون من

الخدينات المجاثر ، ومن السيدات الموهات لأى سبب من الأسباب ؟ لماذا ؟ لا يعلم أحد لماذا ؟ يخيل إلى على العكس بأن طول معاشرتهم لهذا النوع من النساء الفواجر اللاتى يسميهن الناس (أمثلة) جعلهم يعافون جنس الأنثى ، فانهم بعد أن يجالسوهن ليرسموا صورهم على مثالهن يتزوجونهن . اقرأ الكتيب الصادق القاسى الجميل الذى ألفه الفونس دوديه بعنوان (نساء الفنانين)

أما الزوجان اللذان تراهما ، فان الحادث الذى وقع بينهما وقع على صورة خاصة وحال فظيعة

لقد مثلت هذه الفتاة مهزلة ، أو بالحرى مثلت مأساة ألمة . لقد قامرت بكل ما تملك لتربح كل شىء أو تخسر كل شىء . هل كانت مخلصة ؟ هل كانت تحب جان ؟ لا يدرى ذلك إلا الله . ومن ذا الذى يستطيع أن يحدد تحديداً قاطعاً ما فى عمل المرأة من زور وحق ؟ انهن مخلصات دائماً فى ما يبدو عليهن من آثار انفعالاتهن ومظاهر عواطفهن . فهن ساخطات مجرمات مخلصات كريمات لئيمات على حسب ما يجرى فى شعورهن من البواعث والآثار . وهن لا يفترن عن الكذب من غير أن يردن ولا يعلمن ولا يفهمن . وفيهن مع ذلك وعلى رغم ذلك صراحة مطلقة فى الأحاسيس والعواطف اللاتى يظهرنها بأحكام وحلول عنيفة غير متوقعة ولا مفهومة ، تضلل منطقنا فى الرأى والحكم ، وعادتنا فى التعديل والتوفيق . فالمفاجأة والعنف فى عزماتهن يجعلانهن ألغازاً لا تحل ، فنحن لا نبرح نسأل هذا السؤال : « هل هن صادقات ؟ » « هل هن كاذبات ؟ »

ولكنهن يا صديقى صادقات كاذبات فى وقت معاً ، لأن فى طبيعتهن أن يكن صادقات كاذبات على أشد ما يكون الصدق والكذب ، أو لا يكن على شىء منهما أصلا

أنظر الى الوسائل التى يتوسل بها أكرم النساء ليبلغن منا ما يردن ، تجدها وسائل معقدة وساذجة ؛ فهى معقدة بحيث لم تقع فى حدسنا من قبل ، وساذجة بحيث ترانا بعد أن نصبح من ضحاياها لا يسعنا إلا أن تعجب منها ونقول : « كيف ! لقد خدعتنى بحمق وغباوة » . ثم إنهن ينجحن دائماً يا عزيزى ، وعلى الأخص إذا تعلق الأمر بزواجهن . وهاك قصة السيد جان سومير :

كانت الفتاة مثالاً كما علمت ؛ فكانت تجلس فى مرسمه على الأوضاع التى يريدها ؛ وهى بارعة الشكل ظريفة الطبع رشيقة القوام ، فعشقها كما يعشق الانسان كل فتاة على مثالها فى الجمال والفتنة ؛ ثم تخيل أن حبها قد أخذ بمجامع قلبه . وهناك ظاهرة غريبة : اذا ما رغب الانسان امرأة ظن مخلصاً أنه لا يستطيع أن يعيش بدونها بقية عمره ، ولكنه متى ملكها زهدها ، وان تستطيع الشهوة البهيمية أن تمسكه بجانبها طول الحياة ، فلا بد من شىء آخر هو توافق النفس والطبع والمزاج . ومن واجب الرجل أن ينظر حين تفتنه المرأة : أهذه الفتنة صادرة عن إغراء الجسم ، أم عن جاذبية الروح . وقصارى الكلام أنه أحبها أو ظن ذلك ، فعاهدها على الاخلاص وواعدها على الوفاء ، ثم عاش هو وهى على هذا الأمل . وفى الحق كانت الفتاة ظريفة ، وزاد فى ظرفها تلك الغباوة اللطيفة التى تتصف بها الباريسيات الصغيرات ؛ فهى تثرثر وتهذر وتنطق بالحماقات التى تجعلها الطريقة الغريبة التى تلقيها بها

أشبه بالبراعات الذهنية ؛ وكان لها فى كل لحظة حركات تعتنى بها عين الرسام : فهى حين ترفع ذراعيها ، وحين تبسط يديها ، وحين تنحنى ، وحين تركب العربة ، تربك حركات محكمة مقدرة مناسبة . وفى غضون ثلاثة أشهر لم يلاحظ جان أنها فى حقيقة أمرها تشابه سائر (الأمثلة) ، فاستأجر بيتاً صغيراً فى (أندريسى) ليقضيا فيه الصيف . وكنت هناك ذات ليلة حين أخذت الهموم الأولى تنبت فى قلب صديقى ؛ وكانت تلك الليلة قمراء ، فأردنا أن نجول جولة على ضفة النهر ، وكان القمر يرسل على الماء المرتعد وابلاً من الضوء ، ويكسر أشعته الصفراء على دارات الماء وتيار اللج وعباب النهر البطىء الهارب

كنا نسير على طول الشاطىء نشاوى من ذلك الطرب المبهم الذى تبعثه فينا هذه الليالى الحالمة ؛ وكانت نفوسنا مهيأة لأعمال فوق أعمال البشر ، وقلوبنا مفتحة لحب كوائن شعرية مجهولة ؛ وكنا نشعر بالجذبات والرغبات والأمانى تختلج فى نفوسنا ، فلزمنا الصمت مفتونين بصفاء السماء وطراءة الليلة الجميلة ، وعذوبة البحر التى خيل إلينا أنها نفذت إلى الجسم وغمرت الذهن وعطرته وغمسته فى السعادة

وعلى حين بغتة صاحت جوزفين (وهو اسم الفتاة) قائلة :

— هل رأيت السمكة الكبيرة التى وثبت هناك ؟

فأجاب جان من دون أن ينظر أو يعلم :

— نعم يا عزيزتى

فقالت مغضبة :

— كلا إنك لم ترها ، لأن ظهرك كان إليها

فابتسم وقال : نعم هذا صحيح ، فان الجو قد استولى بجماله علىّ فلم أفكر فى غيره

فأمسكت عن الكلام ، ولكن شهوة الحديث ملكتها بعد لحظة فسألت جان :

— أتذهب أنت غداً إلى باريس ؟

فأجابها :

— لا أعلم

فعاودها الغضب ، وقالت :

لعلك ترى مما يهيج نفسك أن تتنزه وأنت صامت . إن الانسان إنسان لأنه يتكلم ! فلم يجب على قولها بشىء . وفطنت هى بفضل غريزة المكر فيها إلى أنها ستحنقه ، فأخذت تغنى ذلك اللحن المثير الذى آذى الآذان والأذهان منذ عامين ، ومطلعه : كنت أنظر فى الفضاء ... فقال لها مغمغما :

— اسكتى من فضلك ؛ فقالت له محتدة :

— ولماذا تريد أن أسكت ؟ فأجابها :

إنك تفسدين علينا المنظر

هنا حدث المشهد المكروه السفيه بعتابه المفاجئ وحسابه المبتسر ، فاحتقنت الوجوه وانهمرت الأعين ، ثم عادا الى البيت . وكان جان قد تركها تمضى فى ثورتها لا يدفع ولا يهاجم ، لأنه كان يحذر الأعصاب بنشوة هذه الليلة العلوية التى هبطت بها إلى الأرض هذه العاصفة الهوجاء

ومضت بعد ذلك ثلاثة أشهر ، كان الفتى يضطرب اضطراب القنيص فى هذه العلاقة القوية الخفية التى تربطنا بها العادة فى مثل هذه الحالة . كانت الفتاة لا تنفك ترهقه إرهاق المضطهد ، وتعذبه عذاب الشهيد ، فصار يومهما وليلهما شجاراً متصلا لا يخلو من سباب وضرب

وأخيراً صمم على أن تنتهى هذه الحال على أى

وجه وبأى ثمن . فباع رسومه واقترض من أصدقائه بعض المال حتى حصل فى يده عشرون ألف فرنك فوضعها ذات صباح على المدفأة ومعها كتاب الوداع وترك لها المنزل ولجأ الى بيتى

وفى الساعة الثالثة بعد الظهر قرع الباب ، فذهبت أفتحه فاذا هى فى وجهى لاتكاد تملك نفسها من الحنق والقلق ، فارتبكت أنا ، ودخلت هى ، ورآها هو من بعيد فوقف حتى أقبلت عليه ورمت بين قدميه الغلاف وفيه الأوراق المالية . وقالت فى هيئة نبيلة ولهجة موجزة : هاك نقودك . لا حاجة لى بها . وكانت حينئذ ممتقعة اللون مضطربة البال حرية بأن تأتى كل حماقة ؛ وكان هو كذلك كاسف الوجه محنق الصدر حريا أن يرتكب كل شدة ، فسألها : ماذا تريدين ؟ فقالت : لا أريد أن تعاملنى معاملة البغى ، لقد توسلت إلىّ حتى سكنت إليك ، فأنا لا أطلب إلا أن تبقينى عندك

فضرب الأرض برجله وقال منفعلا :

لا ، هذا كثير . إذا كنت تظنين أنك . . .

فجذبته أنا من يده وقلت له : دعنى يا جان أفعل . ثم تقدمت إليها وأخذت أكسر من غضبها بكل ما يمليه الخاطر فى مثل هذه الحال ، وهى تستمع إلى جامدة شاخصة صامتة مصرة . فلما فرغت جعبتى والحال لا يزال على أشده ، لجأت إلى آخر الحيل فقلت : إنه لا يزال على حبك يا صغيرتى ، ولكن أمرته تريد أن تزوجه ، وأنت تعلمين . . . ! فأخذتها رجفة قوية وقالت :

— آه . . . ! آه ! لقد فهمت الآن ! ثم التفتت إليه وقالت : تبغى أن تتزوج ؟ فأجابها فى شدة وحزم :

— نعم . فخطت إليه خطوة وقالت :

إذا تزوجت قتلت نفسى . أتسمع ؟

فهز كتفيه وقال : حسن ! اقتلى نفسك ! فنبست بكلمة أو كلمتين وقد أخذ يكظمها الهم القاتل : أتقول ؟ . . أتقول ؟ . . أتقول ؟ . . أعد ! فقال معيدا : اقتلى نفسك إذا كان هذا يسرك ! فقالت وشحوبها يزداد وحالها تسوء : لست فى حاجة إلى التحدى ، سألقى بنفسى من النافذة . فضحك جان ملء فيه ومضى إلى النافذة ففتحها ، ثم حيا وانحنى ، كمن يريد أن يقدم عليه غيره فى المشى ، وقال : هذا هو الطريق ! تفضلى ! فثبتت فيه نظرها الحائر الطائر لحظة ، ثم جمعت نفسها كمن يريد أن يقفز سياجا فى حقل ، ومرت أمامه وأمامى إلى النافذة ثم اختفت !

* * *

لا أنسى ما حييت ذلك الأثر الذى أحدثته فى نفسى هذه النافذة المفتوحة ، وقد هوى منها ذلك الجسم ! لقد رأيتها فى تلك اللحظة واسعة كالسماء فارغة كالفضاء ، فرجعت القهقرى ، ولم أجرؤ على النظر كأنى خشيت أن أسقط . وتبلد جان فلم يستطع الحراك ولا النظر ؛ وتسابق الناس فأتوا بالفتاة مكسورة الساقين ، فلم تمش على قدميها بعد اليوم . وتقدم حبيبها مبلبل الصدر من وخز الضمير ، منفعل النفس من اخلاص الفتاة ؛ فآواها إليه وتزوج منها

ذلك يا عزيزى حديث هذين الزوجين

وأقبل المساء ، فرغبت الفتاة فى العودة خشية البرد ، فأخذ الخادم يدفع عربة الكسيحة نحو القرية ؛ ومشى الرسام بجانب امرأته وقد مضت عليهما ساعة من الزمان لا اللسان يخاطب اللسان ، ولا النظر يبادل النظر .

(يتبع فى مرة قادمة)